مدينة عين شمس

منفذ حضاري في مصر الإسلامية

إعداد د. آمال محمد حسن خليل

مدرس التاريخ الإسلامي

بكلية البنات — جامعة عين شمس

مدينة عَيْذَاب

منفذ حضارى فى مصر الإسلامية

كانت(١) عيذاب(٢) مدينة (٣) من اعمال مصر(٤) ،تقع على ساحل

---

(١) درس الآن ذلك الميناء ،وكان فى بلاد النوبة الحالية ،فى مقابل مدينة جدة .

انظر : د.حسين مؤنس.ابن بطوطه ورحلاته (تحقيق ودراسة وتحليل. دار المعارف.مصر د.ت)ص٤٥.

(٢) بفتح العين المهملة ،وسكون الياء المثناه من تحت،وفتح الذال المعجمة ،والف،وفى الآخر باء موحدة .

انظر : ياقوت.معجم البلدان (٥اجزاء .دار إحياء التراث العربى. بيروت ١٩٧٩) ج٤ ص١٧١- ابو الفداء .تقويم البلدان (تصحيح رينود والبارون ماك كوكين ديسلان. باريس ١٨٤٠) ص١٢٠ - ابن عبد الحق. مراصد الاطلاع (٣اجزاء . تحقيق محمد البجاوى. طبع عيسى البابى الحلبى وشركاه . الطبعة الاولى ١٩٥٤) ج٢ ص٩٧٤.

(٣) يطلق بعض الرحالة على عَيْذَاب مدينة .

انظر : ناصر خسرو . سفرنامة (ترجمة د.يحيى الخشاب.القاهرة . الطبعة الاولى القاهرة ١٩٤٥) ص٧٢- الادريسى. صفة المغرب وارض السودان (نشر وتصحيح هنرى بيريس الجزائر ١٩٥٧)ص٤٩- ابن جبير . الرحلة (دار صادر .بيروت ١٩٥٩) ص٤٥-ابن بطوطه . رحلة ابن بطوطه (دار بيروت للطباعة والنشر . بيروت١٩٨٥) ص٥٣.=

.....

= ويطلق بعضهم عليها حصنا .

انظر : الكرخى. المسالك و الممالك (تحقيق د .محمد جابر عبد العال الحسينى. دار القلم . القاهرة ١٩٦١) ص٣٢- ابن حوقل. صورة الارض (الطبعة الثانية .ليدن١٩٦٧) القسم الأول ص٥١.

بينما يطلق بعضهم عليها بليدة .

انظر : ياقوت. معجم البلدان ج٤ ص١٧١- ابن عبد الحق. مراصد الاطلاع ج٢ ص٢٤٠ .

وبعضهم يطلق عليها ثغرا .

انظر : ابن دقماق. الانتصار (تحقيق لجنة إحياء التراث العربى. بيروت. طبع بالمطبعة الكبرى ببولاق. القاهرة ١٨٩٣) القسم الثانى ص٣٥ .

(٤) يقول ابو الفداء :"وقد اختلف فى عَيْذَاب فبعضهم يحد ديار مصر على وجه تدخل فيه و هو الاشبه لأن الولاية فيها من مصر .وهى من اعمال مصر حقيقة ،وبعضهم يجعلها من بلاد البجا .وبعضهم يجعلها من بلاد الحبشة ".

انظر : تقويم البلدان ص١٢١- ابن دقماق. الانتصار. القسم الثانى ص٣٥. وقد ذكر ابن دقماق أن كور الوجه القبلى اثنان وعشرون كورة .اولهم كورة اوسيم . وآخرهم كورة اسوان . ثم يقول :"ويجمعهم -يعنى كور الوجه القبلى-عشرة اعمال .اولهم عمل الجيزة .....ثم يختمهم ثغر عَيْذَاب".

انظر : الانتصار. القسم الأول ص١٢٨ .

لقلزم)- قبالة مدينة جده .

وقد اكتشفت اطلال عيذاب سنة ١٨٩٦م شمال قرية حلايب بنحو ثمانى رة كيلو متر ،وحدد موقعها بخط عرض ٢٢١٩٤٧شمالا ،وخـط طـول ٣٦٦٣٢ رقا (١) .وتعـد مدينـة عيـذاب ثغـرا من الثغور الإسلامية التى حرص سلمون طـوال الـدولتين الفاطميـة والايوبية على ان تكون قاعدة رية لهم ،ومنفذا لنشاطهم الاقتصادى.

ومعلـوم ان المدن الداخلية مهما بلغت من تقدم ،فإنها تسعى ان تـد نشـاطها ويتسـع ،سعياً نحـو خـلق منفذ بحرى او ساحلى يستوعب ـاطها الاقتصـادى ،وقـد كـانت عيذاب هى المنفذ لمدن الصعيد الاعلى داخلية ،وعلى سبيل المثال قوص واسوان .(٢)

)د .انـور عبـد العليم .الملاحة وعلوم البحار عند العرب(سلسلة عالم المعرفة .الكويت.يناير .كانون الثانى١٩٧٩)ص٨١.

)يجدر بالذكر الاشارة إلى اهم المدن الداخلية التى حققت ازدهارا على المستوى الثقافى والاقتصادى ،وكانت مركزا من المراكز الحضارية وكـانت عيـذاب هى منفذهـا ،او عينهـا التى تطل منها على العالم الخـارجى من تلك المدن مدينتى قوص واسوان .فمن الاسباب التى ادت إلـى النشـاط العلمـى فـى مدينـة قـوص،موقعهـا بين بلاد المشرق والمغـرب فـاصبحت طريقـا سـهلا آمنـا للحـج ،فاتجهت إليها قوافل الحجاج والتجار من المشرق والمغرب،بالاضافة إلى انهاكانت تمتاز بالهدوء والامن مماجعلها مجتمعا مفتوحاالعديد من الجنسيات من بلاد المشـرق والمغـرب،وكـان العلمـاء والفقهاء والمتصوفة من اشد الناس تمسكابالاقامةفى قوص وكان من الطبيعى مع حركة الهجرة لقوص وما جاورهامن مدن الصعيد الاعلى ان تنهض الحركة العلمية ،كما ان صلاح الـدين الايـوبى انتهـز فرصـة هذا الحشـد مـن العلمـاء والفقهـاء والمتصوفة واتخذ منهم سندا فى مقاومة =

الاهمية التجارية :

أ _طرق التجارة

قبل الحديث عن التجارة ،ينبغى ان نشير إلى ان ازدهار التجارة يرتبط إلى حد كبير بازدهار طرق التجارة ،وقد كانت هذه الطرق تمثل اهمية كبيرة فى دفع حركة النشاط الاقتصادى للمدن الداخلية التى كانت بمثابة الظهير الحضارى لمدينة عيذاب،وقد شهدت الحضارة الإسلامية فى الدولتين الفاطمية والأيوبية ازدهارا لطرق القوافل.

وقد أورد الادريسى نصا يؤكد فيه ان الطريق إلى عَيْذاب ليس معروفا، إذ يقول:"من البلاد التى على ساحل بحر القلزم مدينة عذاب، وما اتصل بها قبلها من الصحراء المنسوبة إلى عذاب، وليس بها طريق

= المذهب الشيعى فى بلاد كارمنت واسنا وادفو،وانشا هو ومن بعده من سلاطين الايوبيين والمماليك المدارس والربط والزوايا والمساجد فى تلك المناطق من صعيد مصر الاعلى.

كذلك شهدت أسوان نهضة ثقافية كبيرة ،وكانت الجوامع بأسوان موطن الثقافة بها قبل نشؤ المدارس فيها،وكان بعض هذه الجوامع يتخذ مركزا لبث مبادىء الشيعة. ايام الفاطميين،فلما جاء سلاطين الايوبيين والمماليك،انصرفوا إلى انشاء المساجد واتخاذها معابد و دورا للتعليم لمقاومة المذهب الشيعى. وقد انطبعت الحركة العلمية هناك بطابع الدين، ولعل ذلك راجع إلى طبيعة مدن الصعيد الاعلى وما اشتهرت به من كثرة الزهاد والعباد.

انظر: الدكتور فؤاد حسن.الحياة الفكرية والادبية فى صعيد مصر =

ـروف، ولايستدل عليها إلا بالجبال،وأكثر الاستدلال بها النجوم، سير الشمس من المشرق إلى المغرب" (١)

اما الرحالة الآخرون كناصر خسرو (٢)، وابن جبير (٣)، وابن بطوطه (٤)، فى خلال رحلاتهم لتادية فريضة الحج عن طريق مصر، يصفون طريق من القاهرة إلى عَيْذاب،فيدونون،مشاهداتهم لمدن الصعيد التى رون بها مدينة تلو الاخرى، مع ماتشتهر به هذه المدن سواء من حيث اطها الثقافى، او اهميتها الاقتصادية.

وقد عظم امرها فى خلال الفترة من القرن الخامس إلى القرن شامن الهجرى واصبح التجار والحجاج يفضلونها على القمير، ولاسيما د ان تقدمت ونمت فى العصر الفاطمى، وكثر استخدامها فى ايام شدة العظمى فى عهد الخليفة المستنصر الفاطمى فى القرن الخامس. رجع ازدهار عَيْذاب فى هذا العصر إلى تحول طريق التجارة الفاطمية وب الجنوب، نتيجة لاشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة سلاطين

الأعلى فى القرنين السادس والسابع من الهجرة (رسالة ماجستير. جامعة المنيا.كلية الآداب.قسم اللغة العربية ١٩٨٢) ص٢٦-٤٠-

د.حسين مؤنس. ابن بطوطه ورحلاته ص ٤٤-٤٥ .

) انظر: مفة المغرب وارض السودان ص ٤٩ .

) سفرنامة ص٧١-٧٢. (٣) رحلة ابن جبير ص٤٠- ٤٦.

) رحلة ابن بطوطه ص٥٠-٥٣ .

بغداد (١)، ثم عندما استولى الصليبيون على أرض فلسطين، في سنة ٥١٠هـ واخذوا يقطعون طريق الحج التقليدي خلال سيناء (٢)، ثم العقبة - وهناك يلتقي ركب الحاج المصري وركب الحاج الشامي - فانقطع هذا

---

(١) د.حسن ابراهيم حسن. تاريخ الدولة الفاطمية (مكتبة النهضة المصرية. سالطبعة الرابعة ١٩٨١) ص٦٢ .

(٢) وفي ذلك يقول المقريزي: "فلم تزل مسلكا للحجاج في ذهابهم وايابهم زيادة على مائتي سنة من اعوام بضع وخمسين و اربعمائة إلى اعوام بضع وستين وستمائة، وذلك منذ كانت الشدة العظمى في ايام الخليفة المستنصر بالله ابي تميم معد بن الظاهر، وانقطاع الحج في البر إلى ان كسا السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الكعبة، وعمل لها مفتاحا ثم اخرج قافلة الحاج من البر في سنة ست وستين وستمائة. فقل سلوك الحاج لهذه الصحراء، واستمرت بضائع التجار تحمل من عَيْذَاب إلى قوص حتى بطل ذلك بعد سنة ستين وسبعمائة.

انظر: الخطط (طبع بمطبعة الساحل الجنوبي - الشياح - لبنان د.ت) المجلد ١ ج ٣ ص ٣٥٧ .

طريق،وامبح حجاج مصر والمغرب(١) يسيرون فى الطريق الذى سار فيه
ـن بطوطه صاعدين مع النيل إلى قوص او إسنا او ادفو ويعبرون
نيل لياخذوا طريق وادى العلاقى(٢).

ويقول ابن بطوطه :"ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم
حجاز الشريف،...ومررت بمنية القائد،وهى مدينة صغيرة على ساحل
نيل،ثم سرت منها إلى مدينة بُوش... ثم سافرت منها إلى مدينة دَلاص
. ثم سافرت منها إلى مدينة ببا... ثم سافرت منها إلى مدينة
بَهْنَسَا، ثم سافرت منها إلى منية ابن خصيب، وسافرت من مَنْلَوى إلى
ينة منفلوط... وسافرت من هذة المدينة إلى مدينة اسيوط... وسافرت
ها إلى إخميم... وسافرت من إخميم إلى مدينة هُو... ثم سافرت إلى
ينة قنا... وسافرت من هذا البلد إلى قوص... ثم سافرت إلى مدينة
قصر... وسافرت إلى مدينة ارمنت... ثم سافرت إلى مدينة اسْنَا...
م سافرت إلى مدينة ادْفُو ثم جزنا النيل من مدينة ادْفُو إلى مدينة

---

(١) يقول المقريزى:"اعلم ان حجاج مصر والمغرب اقاموا زيادة على
مائتى سنة لا يتوجهون إلى مكة شرفها الله تعالى إلا من صحراء
عيذاب يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص ثم
يركبون النيل من ساحل مدينة مصر الفسطاط إلى قوص ثم يركبون
الإبل من قوص و يعبرون هذه الصحراء إلى عَيْذَاب ثم يركبون البحر
فى الجلاب إلى جده ساحل مكة".
انظر: الخطط مجلد١ ج٢ ص٣٥٦ .

(٢) د.حسين مؤنس.ابن بطوطه ورحلاته ص٤٧.

العطوانى، ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم،فى صحراء لا عمارة بها إلا انها آمنة السبل، وفى بعض منازلها نزلنا حُمَّيْثرا، ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا إلى مدينة عَيْذَاب". (١)

أما ابن جبير فبعد ان يصل إلى قوص يقول:"والقصد إلى عَيْذَاب من قوص على طريقين:احدهما يعرف بطريق العبدين وهى اقصر مسافة، والآخر دون قنا وهى قرية على شاطئ النيل، ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من ماء دنقاش.ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب أمام ماء دنقاش بيوم... وهذا الماء بامتان المذكور هو فى بئر معينة... فيُلقى فيها من وِلاء الوارد ما لا يحصى كثرة، فتروى القوافل النازلة عليها على كثرتها وتروى الإبل البعيدة الإظماء مالو وردت نهرا من الأنهار لأنفبته وانزفته". (٢)

ومن خلال نص ابن بطوطه وابن جبيريتبين لنا كيف اهتم الفاطميون بطرق المواصلات البرية التى تسلكها القوافل التى تسير بالتجارة من بلد إلى آخر،فكان هنالك طريق للقوافل يربط مصر ببلاد المغرب غربا، و ببلاد الشام والعراق شرقا، كما كانت القوافل تسلك درب الاربعين عن طريق اسيوط تحمل التجارة إلى بلاد السودان.(٣) فلو لم يمهد

---

(١) رحلة ابن بطوطه ص ٥٠ _ ٥٢ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٤١ _ ٤٣ .

(٣) د.حسن إبراهيم حسن. تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٩٦ .

ـاطميون طرق المواصلات البرية تلك،لما تنى للرحالة ان يسجلوا
هر ذلك التقدم ،وما يعكس من توفر الامن والامان للحجيج والتجار.
ومعلـوم ان ازدهـار طرق المـواصلات يعد من المظاهر الحضارية
ى تساعد على انتعاش حركة التبادل التجارى.
ولمـا كـان البحـر الاحمر يتميز بالشعاب المرجانية البارزة ،
ريـاح المعاكسة ،اقتصرت الملاحة فيه على النهار فقط،كما ان نظام
وب الرياح فيه جعل الملاحة من الشمال إلى الجنوب فقط فى فصل من
ول السنة ،ومن الجنوب إلى الشمال فى الفصل الآخر.لهذا احتفظ نهر
يـل الـذى يسير موازيـا لهذا البحر باهميته الكبيرة باعتباره
قا من طرق الملاحة النهرية.

<u>ـ انواع التجار(٥):</u>

ولمـا كـان ميناء عيـذاب عميقا غزير الماء ،مامونا من الشعاب
ابتة ،كـانت عيـذاب نقطة الاتصال بين تجارة البحر وتجارة النهر(١)
ذا فقدكـانت تـرد إليه البضائع من الحبشة والهند وزنجبار بطريق
حـر،ثم تحمل على ظهور الابل مخترقة الصحراء،مسيرة عشرين يوما إلى
ان او قوص،ومن هناك تنقل إلى فندق الكارم (٢)بالفسطاط(٣).

يقول ياقوت:"هى مرسى المراكب التى تقدم من عدن إلى الصعيد".
انظر:معجم البلدان ج٤ص١٧١- شيخ الربوة ،نخبة الدهر (ليبزج١٩٢٣)،
ص١٥١.

عـن الكارميـة اوالكـارم يـرى القلقشندى ان هذا الاسم لامعنى له
ويقـال إن أصله الكانمى نسبة إلى الكانم،وان طائفة منهم كانوا
مقيمين فـى مصـر شأنهم المتجر فى البهار من الفلفل والقرنفل
ونحوهمامما يجلب من الهند واليمن فعرف ذلك بهم.
انظـر:ضوء الصبح المسفر وجنى الروض المعطر(تحقيق محمود سلامة،
القاهرة ١٩٠٦)ص٢٥٣.=

.....

= ويذكر د.مبحى لبيب أن ليتمان يفترض أن هذا الاسم قداخذ من متاجرهم ،إذ وجد أن كلمة كريمه Kuraima وهى لفظة أمهرية تفيد معنى الهيل أو الحبهان،وهو تابل من التوابل التى اشتغلوا بالاتجار فيها ثم حفت هذه الكلمة وأصبحت كارم واطلقت على هؤلاء التجار.

ويذكر د.مبحى لبيب انه كان فى القاهرة سوقا مشهورة للعنبر او الكارم ،وإذا كان هذا الكارم إحدى السلع التى استجلبها الكارمية فمن ما استجلبوه إلى مصر فمن الجائز أن ترد نسبتهم إلى هذه السلعة.

انظر:د.مبحى لبيب.التجارة الكارمية وتجارة مصرفى العصور الوسطى(مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مايو١٩٥٢)ص٦-٧

لمزيد من التفاصيل حول الكارمية انظر:د.شوقى عبد القوى عثمان.تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الاسلامية.سلسلة عالم المعرفة يوليو.تموز.الكويت،١٩٩.

(٣)يقول القلقشندى:"وقد كان أكثر السواحل واصلا لرغبة رؤساء المراكب فى التعدية من جده إليه ،وإن كانت باحته متسعة لغزارة الماء وامن اللحاق بالشعب الذى ينبت فى قعر هذا البحر،ومن هذا الساحل يتوصل إلى قوص بالبضائع ومن قوص إلى فندق الكارم بالفسطاط فى بحر النيل".

انظر:صبح الاعشى(نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية.وزارة الثقافة والارشاد القومى.المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر د.ت)ج٣ص٤٦٤.

يـــــل.(١)

ويقـول ابـن جُبير عـن عَيْذاب:"وهى احفل مراسى الدنيا بسبب ان راكب الهنـد واليمن تحط فيها وتقلع منها"(٢)، وفى خلال رحلته من وص إلى عَيْذاب يقول:"ورمنا فى هذه الطريق احصاء القوافل الواردة لصادرة فما تمكن لنا، ولاسيما القوافل العيذابية المتحملة لسلع هند الواملة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب واكثر ما شاهدنا صال الفلفل فلقد خيل إلينا لكثرته انه يوازى التراب قيمة"(٣).

وبالاضافة إلى الفلفل،كانت القرفة ترد ايضا بكميات هائلة إلى نـاء عَيْذاب،وقـد كانت:"احمال الفلفل والقرفة وسائرها من السلع روحة لا حارس لها تترك بهذه السبيل إما لاعياء الابل الحاملة لها غـير ذلك من الاعذار،وتبقى بموضعها إلى ان ينقلها صاحبها معونة

) آدم مـتز.الحضـارة الإسـلامية (ترجمـة محمد عبد الهادى ابو ريدة. القاهرة ١٩٤١)ص٣٦٩ - انظر ايضا: ابن جبير. الرحلة ص٧٣. د.سعاد مـاهر.البحريـة فـى مصـر الإسـلامية (دار الكاتب العربى للطباعة والنشر.الجيزة ١٩٦٧) ص١٨٩،١٩٦ .

) الرحلة ص ٤٥.

ويقـول المقريـزى:"كـانت من اعظم مراسى الدنيا بسبب ان مراكب الهند واليمن تحط فيها البضـائع،وتقلع منها مع مراكب الحجاج العادرة والواردة".

انظر: الخطط مجلد ١ ج٢ ص ٣٥٧ .

) الرحلة ص ٤٣ .

من الآفات على كثرة المار عليها من اطوار الناس"(١).

وشهادة ابن جبير هنا تنبئ عن توفر الامن،و بسط الدولة سيادتها ونفوذها على المدينة.

كما كانت التوابل تجلب إلى الميناء من سواحل ملبار،وجزر الهند الشرقية، وشبه جزيرة الملايو. وقد جلب الفاطميون كميات هائلة من التوابل، امتلات بها خزائن التوابل، حتى بلغت قيمة هذه السلع ما يقرب من خمسين الف درهم فى السنة.

وكانت مصر تستورد العطر والند والمسك والعود من جزر الهند الشرقية وبلاد الملايو،وتستورد الكافور من زنجبار، ويجلب العنبر من جزر الهند الشرقية وبخاصة جزيرة جاوة.(٢)

ج - المكوس:

وقد استفاد الفاطميون واهل عيذاب من المدينة كميناء تجارى حيث كانت تجبى المكوس(٣) من التجار، وفى ذلك يقول ناصر خسرو (٤) :"وفيها_اى عيذاب_ تحمل المكوس على ما فى السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن.ومنها تنقل البضائع على الإبل إلى اسوان...

---

(١) الرحلة ص ٤٤ .

(٢) د.حسن ابراهيم حسن . تاريخ الدولة الفاطمية ص٦١٥ - ٦١٦ .

(٣) عن المكوس يقول المقريزى:"اعلم ان مال مصر فى زماننا ينقسم الى قسمين احدهما يقال له خراجى والآخر يقال له هلالى...والمال الهلالى عدة ابواب كلها احدثوها ولاة السوء شيئا بعد شئ...من =

هناك تنقل بالسفن إلى مصر فى النيل"(١).

وكانت هذه المكوس مبالغ فيها،وقد شكا ابن جبير من سوء
لة موظفى الجمارك(٢)،فلما تولى الناصر صلاح الدين الايوبى مصر؛
بإسقاط هذه المكوس،واستمر الوضع على هذا الحال حتى سنة ٥٦٤هـ،حيث

ل تاجر...من المسلمين من كل مائتى درهم خمسة دراهم...ومن
ر من تجار العهد يعنى اهل الذمة من كل عشرين درهما درهما،ومن
ر الحرب من كل عشر دراهم درهما...واول من احدث مالا سوى الخراج
ر احمد بن محمد بن مدبر لما ولى خراج مصر بعد سنة خمسين
ثنين...فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجى وهلالى،وكان الهلالى
ف فى زمنه وما بعده بالمرافق والمعادن،فلما ولى الامير
لعباس احمد بن طولون إمارة مصر...كتب بإسقاطها فى جميع
له...ثم اعيدت الاموال الهلالية فى اثناء الدولة الفاطمية
ما فعلت ومازالت تعرف بالمكوس...وكان جملة ذلك فى كل سنة مائة
ف دينار تفصيلها مكس البهار وعمالته ثلاثة وثلاثون الف وثلثمائة
عة وستون دينارا،مكس البضائع والقوافل وعمالتها تسعة آلاف
ثمانية دينار...".

انظر:الخطط(٢جزء.مؤسسة الحلبى للطباعة والنشر.القاهرة د.ت).
ج١ص١٠٣-١٠٤ .

ويعلق القلقشندى على طبقة التجار بقوله:"...مايؤخذ على وامل
ار الكارمية من البضائع فى بحر القلزم من جهة الحجاز واليمن
ا والاهما. وذلك باربعة سواحل من البحر المذكور.الساحل الاول:
اب ..."

انظر:صبح الاعشى ج٣ص٤٦٤ .

(٢) ابن جبير.الرحلة ص٣٠ .

فرنامة ص٧٢ .

عادت هذه المكوس تجبى مرة اخرى،بل زادت عن عهد الدولة الفاطمية (١).

د - المكوك:

وقد كان لكبار التجار فى مصر وكلاء فى ميناء عَيْذَاب ينوبون عنهم فى اعمالهم التجارية.(٢)

ولكثرة الأعمال التجارية وصعوبة نقل الأموال، وخطورتها عرفوا الحوالات المالية (٣){المكوك}، وقد تسلم ناصر خسرو كتابا من تاجر باسوان،ليسلمه إلى وكيله بعَيْذَاب،يقول فيه :"اعط ناصرا ما يريد، وهو يعطيك مكا للحساب"، وكان الصرافون والوكلاء يقومون مقام

---

(١) يقول المقريزى:"فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف اعاد المكوس وزاد شناعتها...ولما استقل الملك المعز عزالدين ايبك التركمانى الصالحى بمملكة مصرفى سنة خمسين وستمائة بعد انقراض دولة بنى ايوب استوزر شخصا من نظار الدواوين يعرف بشرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى احد كتاب الاقباط، وكان قد اظهر الإسلام...فقرر فى وزارته اموالا على التجار وذوى اليسار وارباب العقار ورتب مكوسا وضمانات سموها حقوقا ومعاملات...".

انظر: الخطط ج١ ص١٠٥ .

(٢) ناصر خسرو. سفرنامة ص ٧٤.

(٣) احمد امين. ظهر الإسلام (مكتبة النهضة المصرية .الطبعة الخامسة ١٩٥٢) ج٢ ص٢٤١ .

ف في العصر الحديث.(١)

ميناء عَيْذَاب للحج:

المتامل في الحضارة الإسلامية يلاحظ ان الأماكن المقدسة كانت
ة او نورا تهوى افئدة المسلمين إليها،وقد بدا ذلك واضحا لمن
ع حركة النشاط الثقافي في العالم،حيث كانت القوافل تسير من
ب والاندلس إلى المشرقُ في رحلة تهدف إلى التبرك بزيارة الأماكن
سة،واداء فريضة الحج، .هذه القوافل كانت احيانا تزواج بين
والتجارة، ومن أبرز من دون رحلة هؤلاء الحجاج وقوافلهم "ناصر
،و"ابن جبير"(٢) ، و"ابن بطوطه".

قول ناصر خسرو:"حينما كنت في أسوان كان لي صديق...وهو ابو
بدالله محمد بن فليح، فلما ذهبت من هناك إلى عَيْذَاب كتب...
وكيله بها كتابا يقول فيه :إعط ناصرا مايريد، وهويعطيك مكا
حساب. فلما بقيت بها ثلاثة اشهر، وانفقت ما معي،اضطررت ان
عطي هذه الورقة للوكيل فاكرمني، وقال:إن له والله لدى اشياء
كثيرة،وإني معطيك ما تريد واعطني مكا به...وقد اخذت منه مائة
ن من الدقيق وهو مقدار كبير هناك واعطيته مكا به ارسله إلى
سوان، وقبل رحيلي من عَيْذَاب ورد خطابا من محمد فليح لوكيله
قول فيه :اعط ناصرا كل ما يريد مهما تكن قيمته مهما على عندك.."
نظر: سفرنامه ص ٧٤.

تميز كتب الرحلات عادة بانها تحتوى على مادة غزيرة تتضمن =

.....

= معلومات تفيد الباحثين في علوم الانسان،فضلا عما تتميز به من حيوية في المعلومات،ومدور المعلومة عن نظرة عيانية مباشرة يلفى حيوية على المادة التي تطالعها في تلك الكتب، الف إلى ذلك انها مادة خصبة لعلم اللغة التاريخي، حيث ان قراءة تلك الكتب تكشف عن مدى تطور اللهجات ونموها ، وازدهارها ، و تتبدى اهمية هذه الملاحظة إذا ما قارنا بين صدق لغة ابن جبير في رحلته ، وحرارة اسلوبه وبين الكتابات الديوانية المعاصرة له .

وقد اشاد الاب لامانز Lammens بان ابن جبير يمتاز بقوة ملاحظة نافذة ، وبان رحلته تعتبر من الناحية الفنية ذروة مابلغه نمط الرحلة في الادب العربي، وإذا كان وصفه المفصل للابنية مملا للقارئ العادي، فإن اسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية ، وسهولة التعبير،...وقد لاحظ لامانز ان عرفه العام يستهدف المتعة والاناقة ، فهو كثيرا ماليلجا إلى السمع الذي يعالجه بكثير من المهارة ، دون ان يبالغ فيه ،او يفطر القارئ إلى تكلف الجهد في تفهمه ،كما يشحن كتابته بالاقتباسات الادبية ،والاشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع حتى يفحى مفهوما للقارئ...ويختم لامانز ملاحظته على هذا الكتاب واصفا إياه بالاسلوب الرفيع".

أكراتشكوفسكي: تاريخ الادب الجغرافي العربي(ترجمة ملاح الدين =

وقد كثر عدد الرحالة المغاربة الذين اتجهوا صوب المشرق لأداء فريضة الحج، وزيارة المدن الإسلامية الشهيرة مثل القاهرة ودمشق وبغداد. نذكر من هؤلاء الرحالة ابن جبير(١).

وبالاضافة إلى الأهمية التجارية - التي تحدثنا عنها - لميناء عيذاب كان لهذا الميناء أهمية كبيرة خاصة بالحجاج، فاصبح حجاج مصر والمغرب يسيرون في الطريق الذي كانت تسير فيه القوافل التجارية، صاعدين مع النيل إلى قوص أو إنا أو إدفو، ويعبرون النيل ليأخذوا طريق وادي العلاقي إلى عيذاب(٢)، ومن عيذاب كان الحجاج يركبون السفن إلى ميناء جده (٣)، ويقول الإدريسي:" ومنها يعني عيذاب - المجاز إلى جده، وعرضه هناك مجرى يوم وليله (٤)".

وكان الناس يتحملون الصعاب في سبيل الفوز بالحج إلى بيت الله الحرام، فقد فرضت الدولة الفاطمية ضريبة - مكساً - على الحجاج، بلغ

عثمان هاشم. جامعة الدول العربية ١٩٦٥) ص٣٠٠ - ٣٠١ .

١) د.حسين محمد فهيم. أدب الرحلات (سلسلة عالم المعرفة. العدد ١٣٨. يونيه ١٩٨٩) ص١٢٦ - ١٢٧ .

١) د.حسين مؤنس. ابن بطوطه ورحلاته ص٤٧ .

٢) يقول ابو الفداء :"...وعرض البحر بين عيذاب وجده درجتان".

انظر: تقويم البلدان ص١٢١ .

٤) صفة المغرب و ارض السودان ص ٥١ .

ثمانية دنانير عن كل حاج، ولما كانت هذه الضريبة كبيرة، لم يستطع كل حاج دفعها، لذلك كان الذين يحاولون التهرب من دفع هذه الضريبة يتعرضون لسوء المعاملة، وفي بعض الاحيان للسجن، وكان بعض الحجاج الموسرين يقومون بدفع هذه الضريبة لمن لم يستطع دفعها تقربا لوجه الله تعالى.(١)

إلا ان صلاح الدين الايوبي الغى هذه الضريبة المجحفة التي فرضها الفاطميون على الحجاج، وفي ذلك يقول ابن جبير:"ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة من الله تعالى وآثاره التي ابقاها ذكرا جميلا للدين والدنيا:إزالته رسم المكس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيديين...فمحا هذا السلطان هذا الرسم اللعين ودفع عوضا

---

(١) يقول الإدريس:"وبها_اي عَيْذَاب_ يؤخذ المكس في وقتنا هذا من حاج الإسلام القادمين من بلاد المغرب، وهذا المكس مبلغه على كل راس ثمانية دنانير من اي الذهب كان مكسورا اومسكوكا ولايعبر احد من حاجي المغرب إلى جده إلا ان يظهر مكسه، ومتى جوزه وبانى بحر القلزم ولم يكن عنده مكس غرمه الربانى، فلذلك حتى لايجوز احد من عذاب إلى جده حتى يظهر الربانى البراه مما يلزمه، فإذا جاز المركب البحر وسهل عليه الوصول إلى جده أرسى على بعد ودخل النقاب من ناحية والى جده فحرزوا ما هنالك من الموجوبات الممسكة اللازمة، واثبتوها في دواوينهم ثم نزلوا ونزل الناس بجملتهم فتقتضى منهم المكوس اللازمة لهم الواجبة عليهم، فإن =

ه مـايقوم مقامه من أطعمة وسواها...لان الرسم المذكور كان باسم رة مكة والمدينة، عمرهما الله "(١).

كمـا افـاد اهل عَيْذَاب من الحجاج فوائد عديدة، إذ كانوا يفرضون بـة معلومـة عـلى كل حمل طعام يحمله الحجاج، كما كانوا يؤجرون حجاج المراكب التى تحملهم فى البحر إلى جده، ثم العودة بهم إلى ذَاب بعـد اداء فريضة الحج، ولم يكن بين اهل عَيْذَاب إلا من يمتلك ب او مركبين، حتى انهم جمعوا من وراء ذلك ثروات كبيرة.

وكـانت هـذه المـراكب تسمى الجلاب، والجلبـة سـفينة متوسطة

عـثر على رجل منهم ولامكس معه لزم حقه على الربانى الذى جوزه، وربما سجن الرجل الحاج حتى يفوته الحج، وربما قيض الله له من يفرج عنه بما لزم من المكس".

انظر: مغة المغرب وارض السودان ص ٥٠ _ ٥١ .

ويقـول ابـن جـبير: "فكان الحجاج يلاقون من الغلظ فى اصحيدانها عنتا مجحفا ويسامون فيها خطه خسف باغظة. وربما ورد منهم لافلل لديه عـلى نفقته او لانفقة عنده فيلزم اداء الفريبة المعلومة وكـانت سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المغربية... ويعجز عـن ذلـك، فيتنـاول باليم العذاب بعَيْذَاب فكانت كاسمها مفتوحة العين... وكان بجده امثال هذا التنكيل والمعاقه لمن لم يزد مكس بعَيْذَاب وومل اسمه غير معلم عليه علامة الاداء".

انظر: الرحلة ص ٣٠ _٣١.

المصدر نفسه ص٣١ .

الحجم (١)، وكانت ذات عمق يستعمل باطنها مخزن الطعام والماء والبضائع بينما يركب الحجاج على ظهر المراكب.

وكانت هذه السفن - الجلاب - تصنع في عَيْذاب، وكانت سفنا ضعيفة، سيئة الصنع، لا يدقون فيها مسمارا، ظنا منهم ان قاع البحر الأحمر فيه حجر المغنطيس، فإذا سارت السفينة بمسامير اجتذبها المغنطيس، فتتفكك و تغرق، فكانوا يربطون الواح الخشب في ضميمة من حبال مصنوعة من قشر جوز الهند، و: "يخللونها بدسر من عيدان النخيل"، وكانت هذه المواد تجلب من الهند واليمن، ثم كانوا يمبون عليها سمن، او زيت الخروع، او دهن الحوت، حتى يلين عودها، ولا ينفذ فيها الماء.

اما الشراع فكان يصنع من شجر المقل - الدوم -، ويتضح من طريقة الصنع هذه، ان هذه السفن كانت تبنى لرحلة واحدة، تتحطم بعدها، فكان صاحب السفينة يجتهد في تغطية ثمنها قبل اقلاعها، ولا عليه بعد ذلك إن غرقت اووصلت فقد استوفى ماله.

وقد قاس الحجاج الامرين في ركوبهم هذه المراكب(*)، وفي ذلك

---

(١) د.سعاد ماهر. البحرية في مصر الإسلامية ص٣٢٨.

(*) اورد ابن بطوطة حزب البحر المنسوب لأبي الحسن الشاذلي، الذي كان يقرؤه إذا ركب السفينة إلى جده لأداء فريضة الحج، وظل تلامذته يقراون هذا الحزب بعد وفاته، وهذا نصه: "يا الله ياعلي ياعظيم ياحليم ياعليم انت ربي وعلمك حسبي، فنعم الرب ربي، ونعم الحسب حسبي، تنصر من تشاء، وانت العزيز الرحيم. تمالك العصمة =

يقول ابن جبير: "ولاهل عَيْذاب فى الحجاج احكام الطواغيت،وذلك انهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض وتعود بهم كانها اقفاص الدجاج المملؤة ،يحمل اهلها على ذلك الحرص والرغبة فى الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة منهم ثمنها فى طريق واحدة ،ولا يبالى بما يمنع

= فى الحركات والمكنات والكلمات والإرادات والخطرات من الشكوك والظنون والأوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب، فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ليقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ؛ فثبتنا وانصرنا وسخرلنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسى،عليه السلام ،وسخرت النار لإبراهيم ،عليه السلام ، وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام ،وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان ،عليه السلام ، وسخر لنا كل بحر هو لك فى الأرض والسماء والملك والملكوت،وبحر الدنيا ،وبحر الآخرة ..."

بقية الحزب انظر: رحلة ابن بطوطه ص٢٦-٢٧.

ونص ابن بطوطه ينبئ عن المعتقدات التى تولدت فى نفوس الحجاج والتى تحولت إلى طقوس اوشعائر تساعد عالم الانثروبولجى (علم الانسان) فى التعرف على انماط السلوك الانسانى.كما يكشف عن مدى المعاناة التى كان يتعرض لها الحجاج فى سفرهم من عيذاب إلى جده .

البحر بها بعد ذلك ويقولون :علينا بالالواح ،وعلى الحجاج بالارواح . وهذا مثل متعارف بينهم "(١).

اما رحلة العودة من جده إلى عَيْذاب فكانت شاقة ، حيث يتعرض كثير منهم للهلاك، فكانت الرياح - في كثيرمن الاحيان - تلقى بالمراكب في مراسى تبعد عن عيذاب، فينزل البجاه إلى الحجاج ويؤجرون لهم الجمال ،ويسلكون بهم طريقا ليس فيه ماء ،فكان اكثرهم يموت عطشا ، فيستولى البجاه على امتعتهم واموالهم ،والبعض الآخر كان يمشى على قدميه على غير هدى، فهو يجهل هذا الطريق ،فيضل ويهلك عطشا والذى يسلم منهم يصل إلى عَيْذاب:"كانه منشر من كفن شاهدنا منهم مدة مقامنا اقواما قد وملوا على هذه المفة ،مناظرهم المستحيلة ، وهيئاتهم المتغيرة ، آية للمتوسمين"(٢).

---

(١) رحلة ابن جبير ص٤٤ - ٤٨ . - المقريزى. الخطط مجلد١ ج٣ ص٣٥٧ - د.حسين مؤنس. ابن بطوطه ورحلاته ص٤٧، ٤٩ - د.توفيق سلطان اليوزبكى. دراسات في النظم العربية الإسلامية (جامعة الموصل. الطبعة الثالثة ١٩٨٨) ص٢٧٦ .

(٢) ابن جبير. الرحلة ص٤٦ - ٤٧ - المقريزى. الخطط مجلد١ ج٣ ص٣٥٧ - ٣٥٨ .

لاهمية الاستراتيجية :

وقد بلغ من اهمية عيذاب ان اتخذها الفاطميون قاعدة بحرية هامة ،كما كانت الاسكندرية ودمياط،وعسقلان،وبعض المدن السورية الاخرى(١).

وتتجلى اهمية مدينة عيذاب الاستراتيجية كثغر من الثغور الإسلامية التى تطل على البحر الاحمر،فى انها كانت منفذ المدن الداخلية من جانب،بالاضافة إلى ان موقعها الاستراتيجى جعلها هدفا للطامعين من جانب آخر.ونظرا لاهمية هذا الطريق للاماكن المقدسة حرص الحكام المسلمون أن يكون هذا الطريق محرما على غير المسلمين،سواء اكانوا تجارا او محاربين.

وفى عصر الدولة الفاطمية تزايد اهتمامهم بالاساطيل وحفظ الثغور وعنايتهم بامر الجهاد على نحو ما يذكر القلقشندى:"فكان ذلك من اهم امورهم واجل ماوقع الاعتناء به عندهم وكانت اساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالاسكندرية ودمياط من الديار المصرية وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام حين كانت بايديهم،قبل ان يغلبهم عليها الفرنج...وكان لهم ايضا اسطول بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن،وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب،فيحميهم الاسطول منهم،وكان والى قوص هو المتولى لامر هذا الاسطول،وربما تولاه أمير من الباب،ويحمل إليه من خزائن السلاح مايكفيه"(٢).

وعلى الرغم من ذلك فقد حاول المليبيون الإستيلاء على البحر الاحمر لتحقيق هدفين:الاول:يرمى إلى قطع الطريق على الحجاج،وغزو مكة والمدينة،ونبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم،ونقل جسده الشريف إلى بلادهم.

---

(١)د.حسن إبراهيم حسن.تاريخ الدولة الفاطمية ص٣٠٤ .

(٢)القلقشندى.صبح الاعشى ج٣ ص٥١٩-٥٢٠ .

والهدف الثاني: الاستيلاء على عدن، فيستطيعون بفضل سيطرتهم على ايلة في الشمال، وعدن في الجنوب من إغلاق البحر الاحمر في وجه اعدائهم، واحتكار تجارة الشرق الاقصى والمحيط الهندي(١).

ففي سنة ٥٧٨هـ قام ارناط صاحب حصن الكرك ببناء عدة سفن، حملت اجزائها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة، حيث ركبت وشحنها بالمقاتلين، وقسمهم إلى فرقتين، الفرقة الاولى: حاصرت حصن ايلة، اما الفرقة الثانية فقد ساروا في البحر متجهين إلى عيذاب، فلما وصلوا إلى بحر النعم: "احرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا، وانتهوا إلى عيذاب فاخذوا منها مركبا كان ياتي بالحجاج من جدة، واخذوا ايضا في البر قافلة كبيرة تاتي من قوص إلى عيذاب وقتلوا الجميع ولم يحيوا احدا، واخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار اليمن، واحرقوا اطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لصيرة مكة والمدينة اعزهما الله، واحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الاسلام، ولا انتهى روعي إلى ذلك الموضع قط"(٢).

---

(١) ابن الاثير: الكامل (دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٣) ج٩ ص١٥٩-١٦٠، د. سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية ص١٠٥-١٠٦.

(٢) ابن جبير: الرحلة ص٣٤؛ ابن الاثير: الكامل ص١٥٩-١٦٠.

بعث صلاح الدين الايوبى إلى سيف الدولة بن منقذ نائبه على
يامره باعداد جيش بقيادة الحاجب لؤلؤ لقتال الفرنج. سار لؤلؤ
ى ايلة فوجد مراكبا للفرنج فاحرقها واسر من فيها، ثم سار إلى
اب وكان الفرنج قد رحلوا، فاستمر يقتفى اثرهم حتى ادركهم ولم
بينهم وبين المدينة إلا مسافة يوم، فقبض عليهم، وحملهم إلى
هرة (١).

ووافق من تفسير ابن اياس لاحداث سنة ست عشرة وسبعمائة مدى
هور والقحط الذى كانت عليه عيذاب وتذمر اهلها وعميانهم مما
السلطان محمد بن قلاون ان يعين: "تجريدة إلى صحراء عيذاب بسبب
د العربان، فعين ستة مقدمين الوف، والف مملوك، فلما وصلوا إلى
ك توجهوا إلى بلاد البجاه، وجاوزوا الاقاليم الثلاثة، ولم يظفروا
د من العربان العصاه، فقتلق العسكر، وكان غالب قوتهم
ة، والشرب من الحفائر، فرجعوا إلى القاهرة من غير طائل" (٢).

بن الاثير: الكامل ج٩ص١٥٩-١٦٠، د. سعاد ماهر: البحرية فى مصر
لاسلامية ص١٠٦-١٠٧.

نظر: بدائع الزهور (تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب
١٩٨) ج١ص٤٤٧.

البـــريد:

وكما اهتم الفاطميون بطرق المواصلات البرية التى تسلكها القوافل التجارية والحجاج حتى يصلوا إلى ميناء عَيْذَاب، كما بلغ من اهتمامهم بها ان جعلوها قاعدة عسكرية هامة كما سبق ان اشرنا، فقد عنى الفاطميون بالبريد، وكان البريد يسلك نفس الطرق البرية التى تسلكها التجارة، وكانت اهم خطوط البريد فى مصر حتى نهاية العصر المملوكى سبع طرق، إحداها يمر بعَيْذَاب، وكان هذا الطريق يبدأ من: قوص إلى سواكن مارا بقفط ولِيطه والدَّرَيج و حُمَيْثرة وعَيْذَاب وبنى عامر وسواكن.(١).

نظام الحكم:

عندما غزا عبدالله بن سعد بن ابى سرح النوبة سنة ٣١هـ:"تجمع له فى اشرافه على شاطئ النيل البُجة فسأل عنهم فاخبر بمكانهم فعان عليه امرهم فنفذ وتركهم ولم يكن لهم عقد ولا ملح".

وكان اول من هادنهم عبيدالله بن الحبحاب فى اواخر القرن الاول الهجرى، ويقول ابن عبد الحكم:"ويزعم بعض المشائخ انه قرا كتاب ابن الحبحاب فإذا فيه: ثلثمائة بكر فى كل عام حتى يغزلوا الريف مجتازين تجارا غير مقيمين، على ان لا يقتلوا مسلما ولا ذميا فإن قتلوه فلا عهد لهم، ولايؤوا عبيد المسلمين، وان يردوا اباقهم إذا وقعوا إليهم وقد عهدت هذا فى ايامهم يؤخذون به ولكل شاة اخذها

---

(١) د.حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص٥٩٦ .

بجاوى فعليه اربعة دنانير وللبقرة عشرة وكان وكيلهم مقيما بالريف رهينة بيد المسلمين". (١)

ويتضح من هذه المعاهدة ان السلطة الحاكمة فى مصر اصبح لها نفوذا على بلاد البُجاه، والتى كانت عَيْذَاب جزءا منها.

ولكن هذه السلطة زادت ووضحت فيما بعد، إذ ان البُجاه لم يحافظوا على العهد الذى ابرموه مع ابن الحبحاب، فكثرت اغاراتهم على جهات اسوان، واشتد ايذاؤهم للمسلمين فيها، فرفع امرهم إلى الخليفة العباسى المامون (٢١٦هـ)، فكانت له معهم وقائع انتهت بمهادنتهم، وتم عقد صلح بينه وبين كَنُون بن عبدالعزيز زعيم البجه، ومن اهم شروط هذا العقد:

١) ان تكون بلاد البجه من حدود اسوان إلى حد مابين دَهْلَك وبافع ملكا للخليفة المامون، وان يكون البُجاه ورئيسهم عبيدا له على ان يكون كنون ملكا على البُجاه.

٢) ان يؤدى ملك البُجاه الخراج كل عام على ماكان عليه اسلافه مائة من الإبل او ثلثمائة دينار.

٣) ان يحترم البُجاه الإسلام والا يذكروه بسوء ولا يعينوا احدا على اهل الإسلام.

٤) الا يمنعوا احدا من المسلمين الدخول فى بلادهم والتجارة فيها برا وبحرا.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر (طبع ليدن ١٩٢٠) ص١٨٩.

٥) الا يمنعوا احدا من المسلمين تاجرا او مقيما مجتازا او حاجا فهو آمن حتى ينزح من بلادهم .

٦) اذا نزل البُجه معيد مصر مجتازين او تجارا فلايظهرون سلاحا ولا يدخلون المدن والقرى بحال .

٧) ان لا يهدموا شيئا من المساجد التى ابتناها المسلمون فى سائر بلادهم .

٨) ان يقيم كَنُّون بن عبدالعزيز بريف صعيد مصر وكيلا يفى للمسلمين بما شرط لهم من دفع الخراج ورد ما اصابه البجه للمسلمين من دم ومال (١) .

ولكن يبدو ان سلطان ملك البُجاه قد اخذ فى الازدياد فى عيذاب حتى اصبح مشتركا بين كل من السلطة الحاكمة على مصر وبين ملك البُجاه (٢) . كما يتضح من المصادر . فيقول الإدريسى: "ومدينة عذاب ينزلها عامل من قبل رئيس البُجة ، وعامل من قبل ملك مصر، يقتسمون جبايتها بنصفين" (٣) .

ثم اخذت سلطة ملك البُجاه فى الازدياد فى عَيْذاب، ففى الوقت الذى زار فيه ابن بطوطه مدينة عَيْذاب اى فى سنة ٧٢٦ هـ، كان ثلث

---

(١) المقريزى: الخطط مجلد١ ج٣ ص٣٤٤ -٣٤٥ ؛ د.حسن ابراهيم حسن: انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ص١٤٢ -١٤٤ .

(٢) المقريزى: المصدر السابق ص٣٥٨ .

(٣) انظر: صفة المغرب وارض السودان ص٥٠ .

يراد المدينة للملك الناصر، وثلثاها لملك البُجاه.(١)

وكان تنظيم شئون المدينة مشتركا بين كل من عامل البُجاه، العامل الذى يوليه حاكم مصر، فكان على:"عامل صاحب مصر القيام بجلب الارزاق والمعيشة إلى عذاب وعلى رييس البُجه القيام بحمايتها من الحبشة". ولم يكن عامل البُجاه مقيم فى عَيْذَاب، وانما كان يعيش فى الصحارى:"ولا يدخل المدينة إلا غبا"(٢).

ولم تكن العلاقات بين كل من ملك البُجاه والسلطة المصرية على وفاق دائما،وإنما كانت المنازعات تحدث بينهما بين الحين والآخر، على سبيل المثال عندما ومل ابن بطوطه إلى عَيْذَاب، وجد ان خلافا قد نشب بين ملك البجاه -وكان يعرف بالحَدْرَبى -وبين السلطة المصرية، وقعت الحرب بين كلا الجانبين، ووقف الطريق، بل ذهب غضب ملك البُجاه إلى درجة جعلته يحرق السفن المعدة للحجاج:"فبعنا ما كنا عددناه من الزاد، وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم إلى صعيد مصر "(٣)

ويبدو ان منصب قاضى المدينة فى عَيْذَاب كان يتولاه البُجاه. يقول المقريزى:"وادركت قاضيها عندنا بالقاهرة اسود اللون"(٤).

---

١) ابن بطوطه : الرحلة ص٥٣ .

٢) الإدريسى: نزهة المشتاق ص٥٠ .

٣) ابن بطوطه : الرحلة ص٥٣، د.حسين مؤنس: ابن بطوطه ص٤٨ .

٤) الخطط مجلد١ ج٣ ص٣٥٨ .

انتشار الإسلام :

كان البُجاه يدينون بالديانة الوثنية . فيقول الكرخي: "يعبدون الاصنام وما استحسنوه "(١).

وتدل الهدنة التي عقدت بين ابن الحبحاب وملك البُجاه في اواخر القرن الاول الهجري ان الإسلام كان قد بدا في الانتشار بين البُجاه .وعندما بدا العرب يستقرون في المناطق التي كانت بها مناجم الذهب والزمرد لإستخراجه (٢)، اختلطوا بالبُجاه وتزوجوا منهم فدخلوا في الإسلام، ولكن كان إسلامهم ضعيفا، وفي ذلك يقول المقريزي: "ثم كثر المسلمون في المعدن فخالطوهم وتزوجوا فيهم، واسلم كثير من الجنس المعروف بالحدراب اسلاما ضعيفا، وهم شوكة القوم ووجوههم، وهم مما يلي مصر من اول عدهم إلى العلاقي وتيذاب المعبر منه إلى جده "(٣).

ويظهر ان العرب احتلوا احتلالا وثيقا بالبُجاه في القرن الثاني الهجري، عن طريق البحر الاحمر، وعن طريق وادي النيل وخاصة من إقليم اسوان فرحلوا إليها تجارا، كما يظهر ان جماعة من العرب المسلمين كانوا اول من استقر هناك وبنوا مساجد لهم. فهذه الظروف مهدت اول الامر للعرب الاختلاط بالبُجاه، وكانت من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام، وتعريب هذه المنطقة .(٤)

---

(١) المسالك والممالك ص٤٢ ، ابن حوقل: صورة الأرض ص٥٠ .

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص٥١ .

(٣) الخطط مجلد١ ج٣ ص٣٤٤، ٣٤٦ -٣٤٧ .

(٤) د.حسن إبراهيم حسن.انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ص٢٣ -٢٤.

وتدل شروط المعاهدة التى عقدت بين الخليفة المامون وكَنُّون ملك البُجاه على ان العرب المسلمين كانوا يترددون على شرقى السودان تجارا، ومقيمين، ومجتازين، وحجاجا، وان من البُجاه من اسلم: "وعلى كَنُّون ان يدخل عمال امير المؤمنين بلاد البجه لقبض صدقات من اسلم من البُجة "(١)

وعندما قدمت قبائل ربيعة وجهينة وغيرهم من العرب سنة ٢٥٥هـ، واستقروا فى بلاد البُجاه، تصاهروا معهم، ودخل كثير منهم فى الإسلام، كما اعتنق بعض كهنتهم الإسلام، ولكن كان البجاه بجانب إسلامهم متمسكون ببعض العقائد الوثنية، فيقول المقريزى: "ومنهم من يتمسك بذلك مع إسلامه "(٢)

إلا ان الإسلام: "قوى...وظهر وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقى وعَيْذَاب، وسكن فى تلك الديار خلق من العرب من ربيعة ابن نزار بن عدنان فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا من البُجة، فقويت البجه، ثم صاهرهم قوم من ربيعة فقويت ربيعة بالبُجة "(٣) إلا ان احكامهم: "على سنن كانت لهم جاهلية (*) إلى بعض احكام يستعملونها

---

(١) المقريزى. الخطط مجلد ١ ج٣ ص٣٤٦ .

(٢) المصدر نفسه ص٣٤٦ -٣٤٧ .

(٣) نفسه ص٣٤٧ .

(*) مثال على ذلك يقول انهم كانوا لا يورثون البنات.

انظر: ابن بطوطه. الرحلة ص٥٣ .

إسلامية"، ويقول ابن حوقل :"اسلم اكثر البُجه إسلام تكليف وضبطوا بعض شرائط الإسلام وظاهروا بالشهادتين ودانوا ببعض الفرائض".(١)

وهذه النصوص - من كتب الرحالة - تكشف ان تعاليم الإسلام لم تتغلغل فى نفوس معتنقى الديانة الإسلامية من البُجاه، كما تشير إلى ماتذخر به من مادة انثروبولوجية تلقى إضواء على التاريخ الثقافى والاجتماعى والدينى لشعب البُجاه.

السكان:

واهل عَيْذاب من البُجاه، والبُجاه كانوا شعبا قائما بذاته، قريبا من اهل النوبة، ولكنهم لم يكونوا نوبيين - ومن بقاياهم اليوم البشارية المعروفون فى جنوبى مصر ووادى حلفا(٢) - ويقال: انهم من أهل اليمن، وقد سكنوا ساحل البحر الاحمر من قبالة الاقصر إلى ميناء سواكن.(٣)

---

(١) انظر: سورة الارض ص٥١ .

(٢) د.حسين مؤنس: ابن بطوطه ص٤٧ .

(٣) يقول ناصر خسرو عن البجاه :"وهم يسكنون صحراء طولها أكثر من الف فرسخ وعرضها ثلاثمائة فرسخ، وليس لى هذه المسافة الشاسعة سوى مدينتين صغيرتين، تسمى الأولى بحر النعام، والثانية عيذاب وتمتد هذه الصحراء من مصر إلى الحبشة وذلك من الشمال إلى الجنوب وعرضها من بلاد النوبة حتى بحر القلزم وذلك من الغرب إلى الشرق".

انظر: سفرنامة ص٧٤ .

ويقول شيخ الربوة عن البُجاه :"وهم صنفان حذاريّة وملكهم يسكن مدينة هجر، والزنافخة وملكهم يسكن مدينة نقلين، وكلهم ينسفون لحاهم ويدعون شعرات يسيرة وهم عرايا من المخيط ملتحفون بثياب مصبغة، ولهم مدائن أوْنِل وعَدَل وجزيرة دَهْلَك وجزيرة نواكن ومدينة عَيْذاب فرضة التجار من مصر واليمن". (١)

واهل عَيْذاب يتميزون بسواد البشرة، و:"يلتحفون ملاحف صفرا، ويشدون على رؤسهم عمائب يكون عرض العمابة منها اصبعا" (٢) ويقول ابن جبير:"ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقا يسترون بها عوراتهم، واكثرهم لايسترون" (٣).

اما عن لغة البُجاة - بصفة عامة - فكانت لغة اعجمية، وكان لبعض البُجاة لغة خاصة بهم. (٤)

وكانت مدينة عَيْذاب غير مسورة، ومساكن اهلها كانت اكثرها "اخصاص"، اى بيوت مصنوعة من القصب(٥)، ثم بدا اهلها فى بناء مساكن من الجص، بجانب بيوتهم المصنوعة من القصب، وهو ماشاهده ابن جبير فى رحلته. (٦)

---

(١) نخبة الدهر ص٢٦٩ .

(٢) ابن بطوطه : الرحلة ص٥٣ .

(٣) الرحلة ص٤٩ .

(٤) ابن حوقل : صورة الارض ص٥٦ .

(٥) الرازى، مختار الصحاح (عنى بترتيبه السيد محمود خاطر. القاهرة د.ت) مادة خص.

(٦) الرحلة ص٤٥ .

وكان تعداد سكان مدينة عَيْذَاب فى الوقت الذى زار فيه الرحالة ناصر خسرو المدينة ، خمسمائة نسمة (١). ولما كانت مدينة عَيْذَاب فى صحراء لا نبات فيها ولا ماء (٢). إذ لم يكن بالمدينة آبار ماء او عيون، وإنما كان اعتمادهم على ماء المطر، فإذا لم تمطر السماء اضطروا إلى جلب الماء من الأماكن المجاورة ، وكانوا يبيعونه للقادمين إلى المدينة من التجار والحجاج (٣). ويقول ابن جبير فى ذلك: "فكانت مدة المقام بعَيْذَاب...ثلاثة وعشرين يوما ، محتسبة عند الله عز وجل ،لشظف العيش،وسوء الحال،واختلال الصحة ، لعدم الاغذية الموافقة ، وحسبك من بلد كل شئ فيه مجلوب حتى الماء ، والعطش اشهى إلى النفس منه ، فاقمنا بين هواء يذيب الاجسام ، وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، فما ظلم من غَنّى عن هذه البلدة بقوله :

ماءٌ زُعاقٌ وَجَوٌ كُلُّهُ لَهَبُ (٤)

ويبدو ان زيارة ابن جبير لمدينة عَيْذَاب قد تركت فى نفسه مرارة لاتكاد تغيب عن ذوق القارئ لرحلته ، واحساسه بشظف الحياة وقسوتها ؛ تؤكد تحدى الطبيعة للإنسان، ومحاولة الانسان المستمرة ان يقهرها .

وكان يحمل إليها الزرع والتمر من صعيد مصر،وكانوا يعتمدون فى

---

(١) سفرنامة ص٧٢ .

(٢) المقريزى. الخطط مجلد ١ ج٣ ص٢٥٧ .

(٣) ناصر خسرو. سفرنامة ص٧٣ .

(٤) الرحلة ص٤٩ .

طعامهم على البان الإبل والسمك(١) فكان بالمدينة زوارق لصيد السمك من ساحل المديلة، وكان السمك فى هذا الساحل:"لذيذ الطعم، شهى الساكل"(٢).

أما حرفة السكان، فبجانب صناعة السفن - الجلاب - التى كانوا يؤجرونها للحجاج، كما سبق ان اوضحنا، كان اهل عَيْذَاب يتنقلون فى انحاء اراضى البُجَاه "يشترون ويبيعون ويجلبون ماهنالك من السمن والعسل واللبن" والتمر.(٣)

كما اشتغل اهل عَيْذَاب بصيد اللؤلؤ من الجزائر القريبة منها، وكان صيده فى شهور محددة فى كل عام، حيث كان يصاد فى شهرى يونيه ويوليه، فكان النواصون يذهبون إلى تلك الجزر ويقيمون فيها، فيصيدون اللؤلؤ حيث:"المغاص منها قريب القعر ليس ببعيد"، وكان لؤلؤ هذه الجزر يمتاز بانه نفيس و"ذو قيمة سنية".(٤)

---

(١) ابن بطوطة. الرحلة ص٥٣.

(٢) الإدريسى. صفة المغرب وارض السودان ص٥٠.

(٣) ياقوت. المشترك وضعا والمفترق صقعا (جوتجنن ١٨٤٦) ص٣١٥، الإدريسى صفة المغرب وارض السودان ص٥٠.

(٤) ابن جبير. الرحلة ص٤٦.

وقد تحولت اهمية عيذاب التجارية بعد سنة ثمانين وسبعمائة ،حيث انتقلت الاهمية الاقتصادية من ميناء عيذاب إلى ميناء الطور (١) وذلك على يد حاجب الحجاب بالديار المصرية الأمير ملاح الدين بن عرام حيث عمرها بمركب ثم أتبعها بمركب آخر: "فجسر الناس على السفر فيه وعمروا المراكب فيه ،ووصلت إليه مراكب اليمن بالبضائع ورفضت عيذاب والقصير ،وحمل بواسطة ذلك حمل الفلال إلى الحجاز وغزرت فوائد التجار فى حمل الحنطة إليه" (٢).

حاولت فى هذه الصفحات ان اتعرف على ماضى ميناء عيذاب،وهو ميناء درس،ولم يعد له من اثر إلا فى اخبار متناثرة هنا..وهناك.. فى كتب تقويم البلدان (الجغرافيا)..فى كتب الرحلات.. فى التراجم ،فى كتب التاريخ ،واجتهدت أن اقيم - من خلال شذرات تبدو لأول وهلة وكأن لا رابط بينها - وحدة علمية متماسكة ،تسعى أن تتعرف على كنه الحقيقة حقيقة ميناء عيذاب،ودوره الحضارى،والباحث عن الحقيقة ، كالباحث عن الحكمة ،يلتمسها الى وجدها .

---

(١) :"الطور بالضم ثم السكون وآخره راء ،والطور فى كلام العرب الجبل...والطور جبل عند كورة تشتمل على عدة قرى تعرف بهذا الاسم بأرض مصر القبلية وبالقرب منها جبل فاران".

انظر :ياقوت،معجم البلدان ج٤ ص٤٧ .

(٢) القلقشندى ،صبح الاعشى ج٣ ص٤٦٥ .

رحلات ابن بط

المصادر والمراجع

اولا: المصادر:

١- ابن الاثير {ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني.ت٦٣٠هـ}: الكامل في التاريخ. ٩اجزاء .نشر دار الكتاب اللبناني.بيروت الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.

٢- الإدريسي{ابوعبدالله محمد الشريف السبتي.ت نحو٥٤٨}:صفة المغرب وارض السودان.ماخوذ من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .

٣- ابن اياس{محمد بن احمد ت٩٣٠هـ}:بدائع الزهور في وقائع الدهور.الجزء الاول.تحقيق محمد مصطفى.الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢.

٤- ابن بطوطه {ابوعبدالله محمد بن ابراهيم اللواتي.ت٧٧٩هـ }:رحلة ابن بطوطه .دار بيروت للطباعة والنشر.بيروت ١٩٨٥م .

٥- ابن جبير{ابو الحسين محمد بن احمد .ت٦١٤هـ}:رحلة ابن جبير.دار صادر .بيروت ١٩٥٩م .

٦- ابن حوقل{ابي القاسم بن حوقل النصيبي. ت.٣٨٠هـ}:صورة الارض. القسم الاول .الطبعة الثانية . ليدن١٩٦٧م .

٧- ابن دقماق{ابراهيم بن محمد بن ايدمر العلائي.ت٨٠٩هـ}:الانتصار لواسطة عقد الامصار.تحقيق لجنة إحياء التراث العربي.دار الآفاق الجديدة .بيروت.طبع المطبعة الكبرى.القاهرة ١٨٩٣.

٨- شيخ الربوة {شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الدمشقي.ت٧٢٧هـ}:نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.ليبزج١٩٢٣م

٩- الرازي{محمد بن ابي بكر عبدالقادر.ت }:مختار الصحاح.عني بترتيبه السيد محمود خاطر.القاهرة .د.ت .

١- ابن عبد الحق {صفى الدين عبد المؤمن .ت٧٣٩هـ} :مراصد الإطلاع .٣اجزاء تحقيق وتعليق على محمد البجاوى.دار إحياء الكتب العربية .
القاهرة .الطبعة الأولى١٩٥٤م .

١- ابن عبد الحكم {ابى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله .ت٢٥٧هـ} :فتوح مصر واخبارها.ليدن ١٩٢٠ .

١- ابو الفداء {عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر.ت٧٣٢هـ} :تقويم البلدان.تصحيح رينود ،البارون ماك كوكين ديسلان.باريس.دار الطباعة السلطانية ١٨٤٠ .

١- القلقشندى{ابى العباس احمد بن على ت٨٢١هـ} :صبح الأعشى فى صناعة الإنشا .الجزء الثالث.نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية . وزارة الثقافة والارشاد القومى.المؤسسة المصرية العامة للتاليف

والترجمة والطباعة والنشر د.ت .

١- :ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر.تحقيق محمود سلامة .القاهرة ١٩٠٦ .

١- الكرخى{ابن اسحق إبراهيم بن محمد الفارسى.ت النصف الاول من القرن الرابع الهجرى} :المسالك والممالك.تحقيق د.محمد جابر عبد العال الحينى.مراجعة محمد شفيق غربال.دار القلم القاهرة ١٩٦١.

١- المقريزى{تقى الدين ابى العباس أحمد بن على.ت٨٤٥هـ} :المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.المعروف بالخطط المقريزية .٢جزء . طبع مؤسسة الحلبى للطباعة والنشر.القاهرة د.ت.

١- :الخطط المقريزية .المجلد الاول٣اجزاء .مطبعة الساحل الجنوبى.الشياح.لبنان د.ت .

١٨- ناصر خسرو علوى{رحلة تمت حوادثها بين سنة ٤٣٧و٤٤٤هـ}:سفرنامه. تحقيق وترجمة د.يحيى الخشاب.مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر.القاهرة.الطبعة الاولى ١٩٤٥.

١٩- ياقوت الحموى{شهاب الدين ابوعبدالله.ت٦٢٦هـ}:معجم البلدان ٥اجزاء.دار إحياء التراث العربى.بيروت بلنان ١٩٧٩.

٢٠- :المشترك وضعا والمفترق مقعا جوتجنن ١٨٤٦ .

ثانيا :المراجع:

٢١- احمد امين :ظهر الإسلام.الجزء الثانى.مكتبة النهضة المصرية. الطبعة الخامسة ١٩٥٢ .

٢٢- آدم متز:الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى.ترجمة محمد عبدالهادى ابو ريدة.٢جزء.مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر .القاهرة ١٩٤١م.

٢٣- د.انور عبدالعليم:الملاحة وعلوم البحار عند العرب. سلسلة عالم المعرفة.الكويت.يناير.كانون الثانى ١٩٧٩م.

٢٤- د.توفيق سلطان اليوزبكى:دراسات فى النظم العربية الإسلامية. جامعة الموصل.الطبعة الثالثة ١٩٨٨م.

٢٥- د.حسن إبراهيم حسن:تاريخ الدولة الفاطمية.مكتبة النهضة المصرية.القاهرة.الطبعة الرابعة ١٩٨١م.

٢٦- :انتشار الإسلام فى القارة الإفريقية.مكتبة النهضة المصرية.القاهرة.الطبعة الثالثة ١٩٨٤م.

٢٧- د.حسن محمد فهيم :ادب الرحلات.سلسلة عالم المعرفة.العدد١٣٨ يونية ١٩٨٩م.

٢٨ـ د.حسين مؤنس:ابن بطوطه ورحلاته.تحقيق ودراسة وتحليل.دار المعارف.مصر د.ت .

٢٩ـ د.سعاد ماهر:البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية. وزارة الثقافة.دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧.

٣٠ـ د.شوقى عبد القوى عثمان.تجارة المحيط الهندى فى عصر السيادة الإسلامية. سلسلة عالم المعرفة. يوليو.تموز.الكويت.١٩٩٠.

٣١ـ د.صبحى لبيب.التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى. مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية مايو ١٩٥٢م.

٣٢ـ الفوى فؤاد حسن:الحياة الفكرية والادبية فى صعيد مصر الاعلى. رسالة ماجستير.جامعة المنيا.كلية الآداب.قسم اللغة العربية ١٩٨٢

٣٣ـ كراتشكوفسكى:تاريخ الأدب الجغرافى العربى:ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم.جامعة الدول العربية ١٩٦٥م.